نيتشه وتقويض الميتافيزيقا في الفلسفة المعاصرة

بقلم: محمد نور النمر

باحث سوري في قضايا الفلسفة والتربية

Nour.namer@live.com

نيتشه وتقويض الميتافيزيقا في الفلسفة المعاصرة

محمد نور نمر

ملخص الدراسة

يعالج هذا البحث تقويض الميتافيزيقا من وجهة النظر النيتشوية. وهذا يعني أن المنهج المستخدم في دراسة الميتافيزيقا سيكون منهجاً جينالوجياً يستهدف الوصول إلى الميتافيزيقا من حيث هي مرحلة بدء انحطاط للروح الفلسفية الحقّة. ولما كانت كلمة التقويض تعبر عن الهدم الذي يستهدف الأصل، فإن التقويض الجينالوجي سوف ينال من تلك الأسس الميتافيزيقية التي بنى عليها التفكير الفلسفي كل منظومته الانطولوجية والقيمية.

وإذا كان التقويض الجينالوجي يستهدف تقويض الميتافيزيقا الأفلاطونية مباشرة، فإنه سوف يقوض كل المفاهيم التي بنى عليها أفلاطون تصوره الميتافيزيقي، ولما كان التاريخ الفلسفي اللاحق عليه أفلاطونياً، فهذا يعني أن كل الفكر الغربي سوف يتداعى بعد تقويض الأساس الأفلاطوني بالضرورة. أما مجال البحث فيتعلق بنقطتين أساسيتين تتعلق الأولى بأهمية التقويض الجينالوجي بوصفه منهجاً نقدياً، في حين تتعلق الثانية بجدوى ذلك المنهج في تعاطيه مع التراث الغربي. وفي الحالتين ستكون الميتافيزيقا -من حيث هي سمة جوهرية للفكر الفلسفي- هي ما سيرتكز عليها بحثنا.

Abstract

This paper discusses destruction of the metaphysics from Nietzsche's point of view by using genealogical method. The main objective of such method is to view metaphysics as a deterioration of true philosophical soul. Since the destruction aims at destroy, the genealogical destruction means that the metaphysical principles, which the ontological and aesthetic system of philosophical thought based upon, must be destroyed.

Therefore, the genealogical destruction aims at destroying the Platonic metaphysics; in other words, since the traditional Western thought is historically based upon Platonic metaphysics that means the central concepts and categories of such thinking must be necessarily destroyed.

Accordingly, this paper highlights two essential points; the first one, is related to the importance of genealogical destruction as a critical method, and the second one is related to the feasibility of such method when dealing with the Western heritage. In both cases, as metaphysics is an essence of the philosophical thought, it is considered as a pillar on which our discussion based upon.

مقدمة:

ما زالت الميتافيزيقا تحتل مكانة مهمة في التفكير الفلسفي منذ بدء ولادتها في العصر اليوناني وحتى الآن، على الرغم من اختلاف القراءات التي تناولت هذا المفهوم، فقد شكلت الميتافيزيقا، من حيث هي سؤال جوهري للتفكير الفلسفي على امتداد تاريخه، صلب المنظومة الغربية بشقيها الأنطولوجي والقيمي.

ولما كان للفلسفة طبيعة مفاهيمية ميّزتها عن غيرها من فروع المعرفة الإنسانية، فإن لكل فيلسوف جهازه المفاهيمي الخاص الذي يقيم من خلاله تصوره عن الوجود، وتصبح المقولة الرئيسة في كل جهاز مفاهيمي دالة تشير إلى مبدعها، فيرتبط اسمه بها، مثل: الثبات البارمنيدي، والمثل الأفلاطونية، والكوجيتو الديكارتي، وهذا ما جعل "دولوز" يقول: «إن الفلسفة هي فن تكوين وإبداع، وصنع المفاهيم».

وقد شكلت ثنائية المعقول والمحسوس عند أفلاطون مولد الميتافيزيقا، عندما رد العالم المحسوس إلى عالم المعقول، بوصفه عالماً أعلى من المفاهيم المجردة، ومكاناً للحقيقة، ومصدراً لليقين أطلق عليه اسم عالم المثل. وما العالم الأدنى سوى موجودات حسية لا تحقق وجودها إلا بمحاكاتها لعالم المثل، وليست معرفة هذا العالم سوى معرفة ظنية وهمية نتجت عن عالم الضلال والأوهام، وقد ترك هذا التصور الميتافيزيقي أثره الواضح في التفكير الفلسفي، حتى أن بعض الفلاسفة والمؤرخين أعلنا أن تاريخ الميتافيزيقا الغربية منذ أفلاطون حتى العصر الحديث ليس إلا محاولات لتكريس المفاهيم الأساسية لها، رغم كل محاولات الترميم أو الإصلاح على الطريقة الكانطية مثلاً.

ومن المؤكد أن نيتشه هو أول من خرج بصورة جذرية على كل التراث الميتافيزيقي الغربي، ليس فقط في شكله عندما رفض النسقية بوصفها سمة لصيقة بالتّفكير الفلسفي العقلاني الميتافيزيقي، حين كتب جانباً كبيراً من كتاباته على طريقة حكم أو مأثورات أو حتى أشعار، وإنما أيضاً في مضمون ذاك التفكير وكل المفاهيم التي ابتدعتها تلك الميتافيزيقا، فلم يتوقف عند نقدها على الطريقة الكلاسيكية الكانطية، إنما تجاوز ذلك إلى التشكيك في مشروعيتها أو وجودها أيضاً. وقد تجلى ذلك في محاولة نيتشه تقويض الميتافيزيقا من خلال القضاء على كل صور الثنائيات، (المعقول والمحسوس، الله والإنسان) وغيرها، والنظر إلى مبدئها الأعلى: العقل، بوصفه مصدر الأوهام أو الأصنام كما يسميها. ومن ثم يؤرخ نيتشه لمولد التفكير الميتافيزيقي بانحراف الفكر الغربي عن تفلسفه الأصيل الذي تجلى في المرحلة

التراجيدية السابقة على سقراط، لذلك أخذ على عاتقه مهمة تصحيح مسار التفكير الفلسفي، بتقويض الميتافيزيقا.

وسنعرض في الصفحات الآتية الطريقة التي قوض بها نيتشه الميتافيزيقا الأفلاطونية، متسائلين عما إذا كان قد نجح في تحقيق هذه الادعاء من خلال الزعم بأنه تجاوز نقد الفلاسفة السابقين لها، أم أنه على العكس من ذلك أوجد ميتافيزيقا أفلاطونية مقلوبة؟ ومما لا شك فيه أنه من المتعذر الوقوف على تفاصي لهذا التقويض ما لم نبتدئ بالوقوف على تصور نيتشه لمولد الميتافيزيقا.

أولاً - مولد الميتافيزيقا:

أنتجت المرحلة اليونانية السؤال الفلسفي الرئيس ألا وهو: ما الوجود؟ وهذا ما يفسر سر مبالغة نيتشه في أن اليونانيين «ابتكروا الأنساق الكبرى للفكر الفلسفي، ولم يبق لمجمل الأجيال اللاحقة أن تبتكر شيئاً جوهرياً يمكن أن يضاف إليها»، وقد انضم هيدغر إلى نيتشه في هذه المبالغة عندما أكد أنّ: « الفلسفة في جوهرها يونانية». ولعل هذا ما يفسر جانبا كبيرا من جوهر الفكر الفلسفي المعاصر نحو تأويل للفلسفة اليونانية.

أبدع نيتشه الجينالوجيا، أو النسابة، كمنهج فلسفي جديد في التعاطي مع التراث الميتافيزيقي الغربي، ويعرفها "دولوز" بأنها: الإرادة التي لا تفسّر فقط، بل هي تقوّم، وبناء عليه، ليست الجينالوجيا مجرد تتبع تاريخي موضوعي لتاريخ الفلسفة تُمجد به تلك الأصول الميتافيزيقية التي درج عليها الفكر الغربي لقرون عديدة، بل هي أيضاً منهج تأويلي بنى نيتشه من خلاله تصوره الخاص للفلسفة اليونانية، لأن الجينالوجيا تعني «قيمة الأصل وأصل القيم في الوقت ذاته، وهي تتعارض مع الطابع المطلق للقيم... النسابة تعني العنصر التفاضلي للقيم الذي تنبع منه قيمتها بالذات»، لذا تستهدف الجينالوجيا الكشف عن الأصل لما له من دور تأسيسي وجوهري في بناء منظومة القيم الأوربية كلها.

من هنا ميز نيتشه إجرائياً في البنية الداخلية للأصل اليوناني بين مرحلتين: التراجيدية والعقلانية الميتافيزيقية، وميز في الأولى بين نموذجين الأبولي رمز العقلانية والمنطق، والديونيسي رمزاً للحياة والفرح، وقد انتهت علاقة الصراع بين النموذجين بانتصار الأبولية وهو ما تجسد فلسفياً بمولد المرحلة الثانية من الفلسفة اليونانية، التي مثلها "سقراط" و"أفلاطون"، من حيث هما فيلسوفان يعبران عن الفلسفة العقلانية الميتافيزيقية الأبولية المنزع، التي تعبر في نظر نيتشه عن بداية انحطاط للتفلسف الأصيل الذي مثّله الفلاسفة السابقون على سقراط، بوصفهم معبرين عن الروح التراجيدية الديونيسسية، لأن فلاسفة الإغريق الحقيقيّين هم السابقون لسقراط.

يمثّل "سقراط" إذن لحظة البدء العقلاني اليوناني، أي أنه يجسد فلسفياً لحظة انتصار الأبولية على الديونيسسية التي مثلها "هيراقليطس"وغيره من الفلاسفة السابقين على سقراط، لأن اللحظة السقراطية هي «الإيمان الذي لا يتزعزع بأن التفكير العقلاني الذي يقتدي بمنطق السببية يمكنه أن ينفذ إلى أعماق الكون»، هكذا يصبح "سقراط" بنظر "نيتشه" الرجل المبشر بميلاد طريقة جديدة في التفكير تقوم على أن العقل هو المفهوم الرئيس في هذه المنظومة الجديدة التي تجلت في كل تعيينات ذلك التفكير، أخلاقياً على المعادلة الآتية: عقل = فضيلة = سعادة، أغرب المعادلات الممكنة»، أو جمالياً كما يقوم عند سقراط على أساس القانون الآتي: لكي يكون الشيء جميلاً يجب أن يكون مفهوماً»، وبذلك يكون سقراط مؤسس الفكر العقلاني الذي يجعل العقل المبدأ المفسر للحياة والمنظم لكل تصورات الإنسان.

غير أن نيتشه يرى أنه لم يكتمل انتصار الميتافيزيقا على التراجيديا مع سقراط، لأنه لم يؤسس لهذا التحول نحو العقلانية مفاهيمياً فقط، بل إنه قد ورّث حقده على الحواس إلى أفلاطون»، الذي تخطى حدود المفاهيم نحو التأصيل الميتافيزيقي لها، عندما قدم نسقه وفق ثنائية ميتافيزيقية يميز فيها بين عالمين، عالم المثل وعالم المحسوس، أو بين الحقيقي والزائف، عندما فصل «المثل عن المحسوس، والمثال هو الموضوع الذي يكون معروفاً بواسطة

المفاهيم»، وذلك ضمن جغرافيا ميتافيزيقية يعطي فيها الأولوية للمعقول على المحسوس، أو الثابت على المتغير، باعتبار الأعلى مصدراً أبدياً للحقيقة، بينما يكون الأدنى مصدراً للوهم.

إن هذه التراتبية هي التي أسست للفصل بين الفكر والحياة، وشرعّت بالضرورة لعقلنة الحياة وتجميدها منطقياً باسم المثل الأعلى أو المطلق.

أول تعينات هذه القسمة الأنطولوجية هو ثنائيتها المعرفية عندما ميز نيتشه في قراءته لأفلاطون بين «مواضيع المعرفة: النوع الأول المثل التي هي على الدوام مماثلة لذاتها وهي لا تفنى ولا تتعرض للصيرورة. أما الأشياء المادية فهي متغيرة وعرضّة للصيرورة ويلحقها الفساد»، وبناء عليه، تكون المعرفة حقيقية عندما ترتبط بما هو ثابت وهو نمط المعرفة العقلية، وتكون المعرفة ظنية وغير موثوقة عندما ترتكز على المتغير والمتبدل أي عالم الصيرورة وهو نمط المعرفة الحسية. وقد فرض هذا التمايز بين نموذجي المعرفة، اختلاف الحاصلين عليها، حيث أن «الآلهة وعددا قليلا من البشر يحصلون على المعرفة العقلية»، بينما يشترك كل البشر في الحصول على المعرفة الحسية.

وقد استتبعت هذه الثنائية المعرفية في نظر نيتشه قسمة أخلاقية أيضاً، مرتكزة بالأساس على الفصل بين ما هو معقول وما هو محسوس أو بين عالم أعلى وآخر أدنى، لأن «الفيلسوف الذي تكون حياته قائمة على المعرفة، يمتلك كل الفضائل»، ولما كان الخير أعلى مفاهيم المثل الأفلاطوني وأكثرها تجريداً ومفارقة، فسوف يغدو «التحرر من الحواس قدر الإمكان واجباً أخلاقياً، فالحواس عوامل تشوش طمأنينة رجل الأخلاق وراحة المفكر فبقدر تحررهما منها تغدو المعرفة والحقيقة ممكنة»، وهو ما أنتج ثنائية الخير والشر الأخلاقية والقائمة بالأساس على المطلق والنسبي على غرار ثنائية المعقول والمحسوس الأنطولوجية.

لم ير نيتشه في التاريخ الفلسفي اللاحق على سقراط وأفلاطون إلا تاريخاً ميتافيزيقيا ًأفلاطونياً، جعل كل «تاريخ الفلسفة غيظا مكتوما ضد الحياة، ضد مشاعر الحياة، ضد الحكم الصالح للحياة. حيث لم يتردد الفلاسفة في إثبات وجود عالم ما، مناقضا

لهذا العالم [أي العالم المحسوس]... [وهو ما جعل] الفلسفة حتى الآن مدرسة الافتراء الكبيرة»، لأن تاريخها كرّس هذه الثنائية العقلانية الميتافيزيقية رغم تبدل أشكالها تاريخياً أو فلسفياً، سواء أكانت ثنائية دينية كما في العصر الوسيط بين الإله والإنسان، أو ثنائية معرفية كالفكر والمادة مع ديكارت.

ثانياً - تقويض العقل الميتافيزيقي:

ليست الجينالوجيا في جوهرها إرادة تقويض أو تهديم، سعى نيتشه من خلالها إلى القضاء على مقدسات الميتافيزيقيا وبداهاتها وماهياتها الثابتة فقط، إنما هي أيضاً إرادة تشريع جديد، وهذا الفهم الأخير للجينالوجيا يلتقي مع تأويل "دولوز" في تصوره لها على أنها «تنظيم جديد للعلوم، وتنظيم جديد للفلسفة، وتحديد لقيم المستقبل»، في كل تعيناتها الأخلاقية والدينية والجمالية، تلك الإرادة لا يبدعها إلا فيلسوف المستقبل وليس عمال الفلسفة بالتعبير النيتشوي، بيد أننا نختلف مع "الفريوي" حين رأى أن الجينالوجيا «لا تعكس فلسفة حتى تلغي الميتافيزيقا وتتجاوزها، وحتى أن سعت إلى أن تختلف عنها »، لأن فيلسوف المستقبل-الذي لا بد أن يكون منهجه جينالوجياً- هو الفيلسوف المشرع لقيم مستقبلية جديدة، وهو ما بشر به نيتشه معلنا سقوط كل منظومة القيم العقلانية الميتافيزيقية، وولادة منظومة قيم جديدة تكون فيها إرادة القوة مشرعة وخالقة للقيم المبدعة. وبسبب ذلك نُظر إلى نيتشه على أنه أول من افتتح عصر ما بعد الحداثة في التعاطي النقدي مع التراث الفلسفي، والقائمة في الأساس- أي "ما بعد الحداثة"- على التعدد بدلا عن الأحادية، والتأويل بدلا عن اليقين، والنسبية بدلاً عن المطلقية.

لقد وحّد نيتشه بين الميتافيزيقا والعدمية، واعتبر التاريخ الغربي هو التاريخ العدمي، عندما جعلت العدمية مرجعيتها النهائية في العالم المعقول أو الحقيقي، وهو العالم الذي يعتبره نيتشه خرافة وتاريخ خطأ، لأن«الإيمان بمقولات العقل هي علة العدمية، لقد قسنا قيمة العالم حسب مقولات تتعلق بعالم صوري محض»، من هنا تُقال العدمية على سبيل

الترادف مع الميتافيزيقا، لأن نيتشه يطلق تسمية «العدمية على مشروع نفي الحياة، والحط من قدر الوجود»، وهذا ما أسست له الميتافيزيقا في بنائها الثنائي لمنظومة القيم الغربية.

إن جوهر مهمة الجينالوجيا هو التقويض للتفكير العدمي الميتافيزيقي في تصوره الأنطولوجي وتعيناته الأخلاقية والدينية والجمالية، لأن العدمية ليست سبب الانحطاط للفكر الفلسفي الأصيل بل هي منطقه»، كونها تتخذ ذاك الموقف الكاره الذي يدعو إلى تحقير الحياة والانتقام منها بمواجهتها بمشهد خارق من حياة أخرى أفضل منها، هذا ما تجلى في موقف الفيلسوف العدمي الأول، سقراط، من الحياة باعتبارها عديمة القيمة حين قال في اللحظات الأخيرة من احتضاره: «وما الحياة سوى مرض عضال»، كونها تشكل عائقاً جوهرياً أمام الوصول إلى الحقيقة المنشودة، لذلك لجأ سقراط إلى العقل وأقيسته المنطقية التي تجلت في تجميد الحياة وجعلها معقولة أخلاقياً: عقل = فضيلة = سعادة، وجمالياً: لكي يكون الشيء جميلاً ينبغي أن يكون مفهوماً، بذلك تجسد «العدمية المثل الأعلى لأكبر قوة يمتلكها العقل»، ولا يفسر هذا الموقف العقلاني، سواء كان في الأخلاق أو في الجمال، إلا الحكم السلبي على الحياة بوصفه وعياً كارهاً لها تحولت معه العقلانية إلى طغيان يريد أن يسيطر على كل إمكانات الحياة بأساليب منطقية ونظرية مجردة، نُظر من خلالها إلى «سقراط لأول مرة على أنه الانهيار اليوناني باعتباره نمط التفسخ والانحلال» وعلامة انحطاط لتلك المرحلة اليونانية المبدعة.

كما استهدفت الجينالوجيا الميتافيزيقا العقلانية في منبعها الأفلاطوني، حيث كرست في بنيتها الجوهرية كل الثنائيات القائمة على الفصل الحاسم بين المعقول والمحسوس، والتي حكمت كل التاريخ الميتافيزيقي للغرب، ولما بنى أفلاطون أول نسق فلسفي في التاريخ فصل به بين الفكر والواقع أو الحياة، فإن أول ما يلجأ إليه نيتشه بطريقة راديكالية هو تقويض المفهوم المركزي لتلك الميتافيزيقا التي بنت كل تصوراتها على أساسه، ألا وهو مفهوم المثل الأفلاطوني.

حظي أفلاطون بمكانة خاصة – دون غيره – في القراءة النيتشوية، وهو الوحيد الذي كرس له نيتشه كتاباً خاصاً "مقدمة لقراءة محاورات أفلاطون". لم يكشف نيتشه في هذا الكتاب عن دور أفلاطون الرئيس في بناء الميتافيزيقا الغربية فحسب، بل بيّن لنا بدقة المكانة الخاصة التي نالها "مفهوم المثل" الأفلاطوني في تلك المساءلة الجينالوجية، في بنيته الجوهرية ومصادره الفلسفية السابقة عليه، حتى مناقشة القراءات المختلفة الأخلاقية أو الجمالية لذلك المفهوم.

أراد نيتشه القول أن «العالم الحقيقي خرافة والتاريخ الناتج عنه هو تاريخ خطأ»، وأن التاريخ اللاحق عليه هو تاريخ أوثان أفلاطونية ميتافيزيقية، وهذا ما توقف عنده هيدغر في كتابه عن نيتشه بقوله: إن تاريخ الفلسفة منذ أفلاطون تحول إلى ميتافيزيقا فأصبح كله أفلاطونياً»، من هنا يضع نيتشه عين مهمته تدمير هذه الأوهام الأفلاطونية التاريخية، لأن الماضي الميتافيزيقي أصبح يسطو على التاريخ الفلسفي، أو أن هذا التاريخ يئن تحت سطوة الماضي الأفلاطوني، وهذا ما جعل التاريخ الفلسفي يتحول إلى أصنام إيديولوجية تاريخية. إذ يعلن نيتشه في مقدمة كتابه "أفول الأصنام" أن هذا الكتاب هو «إعلان كبير للحرب، أما الأصنام التي يتعين الإصغاء إليها، فهي ليست هذه المرة أصنام العصر، إنها أصنام خالدة».

لعل الصنم الأكبر الذي يحدده نيتشه مرمًى ًلهدفه، هو عالم المثل الأفلاطوني، من حيث تعاليه المطلق عن الحياة، حيث يرى أن نظرية المثل ليست أفلاطونية خالصة بل هجينة «تجمع عناصر سقراطية وفيثاغورية وهيراقليطية»، وقد شرّع مفهوم المثل بمفاهيمه المتعالية والمطلقة لنفي الحياة وأسر مقوماتها بالأقيسة المنطقية الجدلية، من هنا لا يرى نيتشه في «العلامات المميزة التي نسندها إلى الوجود الحق للأشياء هي علامات مميزة لـ اللاوجود أو العدم»، لذلك يشكك نيتشه بوجود العالم المعقول بوصفه أصلاً متعالياً أو مطلقاً ثابتاً للحقيقة، ويرى على العكس من ذلك أنه المصدر الدائم للأوهام أو الأصنام كما يسميها نيتشه، وما يثبت ذلك هو هذا «العالم الحقيقي، المنيع الذي لا يمكن إدراكه ولا إقامة الدليل عليه ولا الوعد به»، لأن الفيلسوف العدمي لا يشك في وجود عالم الحقيقة، بل إن كل الفلاسفة الميتافيزيقيين على يقين بتعاليها المطلق، ولم يختلفوا إلا في طريقة الوصول إليها،

وبالتأكيد ليس كل البشر قادرين على الوصول إليها والإقامة فيها، إنما هي حكر على «عدد محدد من الناس قادر على فهمها»، وهم الفلاسفة أو الإلهة الذين يمارسون التأمل العقلي الذي يُوصلهم إلى الحقيقة المنشودة.

لا يقتصر التقويض الجينالوجي للعدمية على مبدئها الأنطولوجي فحسب، بل يطال كثيراً من تعيناتها الأخلاقية والجمالية من حيث هي ثقافة تجسد غريزة الانتقام من الحياة، والتي أنتجت ما يسمى بالثقافة الجدلية النظرية، أو ميلاد الإنسان النظري الديالكتيكي بالتعبير النيتشوي.

تقوم جينالوجيا الأخلاق على هدم الأساس الذي ترتكز عليه الأخلاق، ألا وهو العقل وكل أساليبه النظرية المجردة، من خلال «اقتلاع أخلاق الارتكاس والنفي من جذورها، وإعادة بعث الحياة الفعلية والإثبات التي تم إقصاءها عبر التاريخ» الذي كرسته الثنائية الأخلاقية الأفلاطونية، بكل تجلياتها الفلسفية والدينية، وربما هذا ما دفع "أويغن فنك" إلى اعتبار التقويض الجينالوجي للميتافيزيقا الأفلاطونية ليس سوى ميتافيزيقا، لكن هذه المرة ليست ميتافيزيقا أنطولوجية بل هي ميتافيزيقا من وجهة نظر أخلاقية تستند على مبدأ التقييم»، لأن ميتافيزيقا الأخلاق الأفلاطونية تستند على كل «أشكال المنطق التي ندخلها في مملكة الكذب وهذه مغالطات منطقية. فالشيء المميز لفلاسفة الأخلاق أنفسهم هو الغياب التام لصفاء الفكر وانضباطه: إنهم يعتبرون المشاعر الجميلة حججاً»، وهذا يجسد موقفهم المعادي الحياة، عندما جعلوا أصل قيمهم- مفهوم الخير - في ما وراء هذا العالم، الذي أدى «إلى الابتعاد عن العالم، هذه الطريقة في الكينونة التي تتنكر للعالم وتتخذ مظهر العداء للحياة ومعنى الكفر بها والصرامة تجاهها»، بذلك تحاول الجينالوجيا تهديم القاسم المشترك في تاريخ الأخلاق، والذي كان سائداً منذ سقراط، ألا وهو محاولة جعل القيم الأخلاقية تهيمن على كل القيم» تحت مسمى المثل الأعلى أو الحياة الفاضلة، من هنا تشكلت ميتافيزيقا الأخلاق، وهي أحد أوجه انحطاط التفكير الغربي في انحرافه عن مساره الأصيل الذي كان مع الفلاسفة السابقين على سقراط أو ما يسميه نيتشه "بالفلسفة التراجيدية".

ولما كانت «الفلسفة الأخلاقية هي المرحلة الصعبة في تاريخ العقل»، فإن الجينالوجيا، بوصفها إرادة تقويم وليست فقط تفسيرا، توضح أن رجوع «السعادة إلى الفلسفة، يقتضي أولاً شنق الأخلاقيين. ما دام هؤلاء يتحدثون عن السعادة والفضيلة، فإن أقصى ما يفعلونه هو الدفع بالنساء العجائز إلى الفلسفة».

قد يبدو التساؤل حول إمكانية تحقيق التقويض لرهاناته مشروعاً، وهل نجح هذا الرهان حقاً في القضاء على الثنائية الأفلاطونية؟ هذا ما سنتعرف عليه في البديل الذي اقترحه نيتشه بعد زعمه تقويض الميتافيزيقا، وهل هذا البديل هو فلسفة ما بعد الميتافيزيقا؟ أم أنها ميتافيزيقا أفلاطونية مقلوبة؟

ثالثاً - قلب الميتافيزيقا:

لا مراء في أن التقويض الجينالوجي بمفاهيمه وتصوراته الخاصة، قد فتح أفقاً فلسفياً جديداً في التعاطي النقدي مع التراث الغربي، وخاصة في تأكيده بـأنه تفكير ميتافيزيقي، من هنا فقد ترك التقويض الجينالوجي أثره الواضح في تفكير كثير من الفلاسفة المعاصرين، الذين انشغلوا بتفلسفهم في قراءة التراث الغربي ولاسيما البداية اليونانية، أمثال هيدغر وغادامير ودريدا، إلا أن المفهوم النيتشوي قد أثار العديد من الأسئلة والإشكاليات الفلسفية التي وصلت حد التشكيك في جدوى هذا التقويض الجينالوجي واستحالته أصلاً، منها مثلاً، هل استطاع نيتشه فعلاً تقويض الميتافيزيقا؟ أم أنه فقط قام بقلب ميتافيزيقا أفلاطون من ميتافيزيقا المعقول إلى ميتافيزيقا المحسوس؟

لقد قلنا سابقاً: إن التقويض الجينالوجي، ليس منهج تفسير بل هو طريقة تقويم، وبناء عليه، لا يكون هدف الجينالوجيا أن تقوض المبدأ العقلي فحسب، وهو الأساس الذي تستند عليه الميتافيزيقا الأفلاطونية، بل أن تشرّع لإرادة جديدة يكون فيها المحسوس المفهوم الرئيس في الميتافيزيقا النيتشوية القديمة في مضمونها والجديدة في شكلها، أي أن نيتشه يقيّم فلسفته على ما اعتبره أفلاطون عالماً مرذولاً وزائفاً ومصدراً للأوهام، وقد جاء كتابه "هكذا

تكلم زرادشت" كناموس للفلسفة النيتشوية، جسد فيه كيف يكون المحسوس بديلاً للمعقول، والأرض مكان السماء، والإنسان محل الإله، وكيف يكون الجسد مصدر كل القيم الجمالية والأخلاقية، من حيث هو ثقافة عاشقة للحياة تعيش بكل إمكاناتها، لأنها ثقافة تعبر عن التصور الديونيسي، وجسدتها حياة زرادشت حين قال: إنني « بأسري جسدٌ لا غير»، وكما أُوجد المحسوس على نموذج المعقول في الميتافيزيقا الأفلاطونية، فإن العقل في الميتافيزيقا النيتشوية ما هو إلا تابعٌ للجسد، حين يقول: وما الجسد إلا الصوت، وما الروح إلا الصدى الناجم عنه والتابع له».

رغم اتفاقنا مع صاحب الرأي القائل إنه « منذ البداية إذن تضع الجينالوجيا نفسها في مقابل الميتافيزيقا»، إلا أننا نخالف صاحبه في موقفه من الجينالوجيا إذ أنها لا تؤسس بل على العكس من ذلك، إنها تقلب ما تعتقده الميتافيزيقا ساكناً»، لأن الجينالوجيا إرادة مشرّعة ومبدأ تقييم، أعطى فيها نيتشه الأولوية للمحسوس بوصفه أساساً مشرعاً لكل قيم الحياة، كما كان المعقول هو العالم الأعلى والمصدر الوحيد لكل منظومة القيم الميتافيزيقية بالمفهوم الأفلاطوني، لأن «الجسد المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بإرادته»، من هنا يمكن القول: إن نيتشه لم يقوض الميتافيزيقا، بل قوض صورة واحدة من صور الميتافيزيقا، ألا وهي الميتافيزيقا الأفلاطونية وقد عمّمها على كل التاريخ الغربي ليكون تاريخاً أفلاطونياً، بيد أن هذا لا يعني أن نيتشه لم يدرك الاختلاف بين صور الميتافيزيقا الغربية، أي اختلاف ميتافيزيقا أفلاطون عن ميتافيزيقا ديكارت أو كنط، بل إن نيتشه وجد في كل صور الميتافيزيقا اللاحقة على أفلاطون قسمة ثنائية تفصل بين عالمين، وتؤكد في كل صورها على أولوية المعقول على المحسوس، وهو ما جعلها أفلاطونية بالجوهر، وجعل التاريخ اللاحق عليها تاريخاً أفلاطونياً.

ربما ليس من الــمبالغة في شيء القول: إن العنف الراديكالي الكلي الذي مارسه نيتشه - في تقويضه الجينالوجي- تجاه المعقول الأفلاطوني لم ينتج سوى ميتافيزيقا أفلاطونية مقلوبة، وهذا ما تؤكده طبيعة النتائج التي أرادها نيتشه من التقويض الجينالوجي، أولها القضاء على القسمة الثنائية القائمة أساساً على أولوية الأعلى على الأدنى، وهذا ما لم تستطع الجينالوجيا

تحقيقه، كونها أنتجت قسمة ثنائية، تقترب إلى حد بعيد من الدوغمائية الأفلاطونية في التأكيد على أولوية الحقيقي على الزائف، والذي وجده نيتشه في عالم المحسوس. هكذا يبقى نيتشه في نفس المنطق الأفلاطوني الذي سعى إلى تقويضه، وقد تجلّى في أمرين: أولاً: في إنتاج الثنائية، وثانياً: في أولوية عالم على آخر، وهذا ما هدفت له الجينالوجيا في مهمتها، بيد أنها لم تحققه، لأنها أقامت رؤيتها على مبدأ تقويم، وهذا يتطلب مبدأ الأولوية الذي يفضي بالضرورة إلى ثنائية يحل من خلالها المحسوس بديلاً عن المعقول، وتكون فيه "إرادة القوة" بدلاً من "المثل" مبدأً مشرعاً كما كان حال المثل الأفلاطونية.

بقي نيتشه أسيراً للميتافيزيقا الأفلاطونية حتى في تعريفه للفلسفة، وبالرغم من أنه لم يقبل التعريف اليوناني الشهير "فيلو صوفيا"، الذي تبناه أفلاطون، فإن-نيتشه - يعطيه معنىً تأويلياً، لا يخرج فيه عن الميتافيزيقا الأفلاطونية، وذلك حين رأى أن «الخط الذي يتميز به الفكر الفلسفي أن العبارة اليونانية التي تحدد الحكيم أصبح بـsapio "أتذوق"، "ذواقة"، الرجل ذي الذوق الأدق»، رغم اختلاف مفهوم أفلاطون للفلسفة المرتكز على المعنى العقلي أو قيمة الحق وهي أحد قيم مفهوم "المثل"، عن معنى نيتشه لها – أي الفلسفة - والقائم على الذوق أو الجمال، الذي ينتمي للفن الذي راهن عليه نيتشه في تقديم فهم أعمق للوجود، أو "الفيلسوف الفنان"، أي الفيلسوف المشرع، إلا أن تعريفه للفلسفة على أساس الجمال، أو رهاناته للفن أو "الفيلسوف الفنان" بقي أفلاطونياً، خاصة وأن الجمال هو أحد المقولات الرئيسة في مفهوم المثل التي يشكل الخير أعلاها والجمال أدناها. وما يؤكد هذا الرأي، هو أن البنية الجوهرية لكل المفاهيم العليا التي ابتدعها نيتشه في فلسفته هي بنية ميتافيزيقية، بدءاً من المفهوم الرئيس: إرادة القوة، حتى العود الأبدي وانتهاء ميتافيزيقيا الفن ذات المنبع التراجيدي.

وجد هيدغر في نيتشه نداً فلسفياً صعباً في قراءته للتراث الغربي عامة، وللفلسفة اليونانية خاصة، فلم يجد هيدغر في الميتافيزيقا الأفلاطونية وكل التاريخ الميتافيزيقي اللاحق

بها مجرد انحراف عن التفلسف التراجيدي اليوناني السابق على سقراط كما زعم نيتشه، بل ضرورة فرضتها صيرورة تطور الفكر الغربي.

رغم أهمية القراءة النيتشوية في التعاطي النقدي مع التراث الميتافيزيقي الغربي بنظر هيدغر، ورغم أهمية اتفاقه أيضاً مع نيتشه في «أن تاريخ الفلسفة منذ أفلاطون تحول إلى ميتافيزيقا فأصبح كله أفلاطونياً»، إلا أن هيدغر يشكك في قدرة هذا المنهج الجينالوجي - الذي ابتدعه نيتشه في تعاطيه مع الميتافيزيقا - على تحقيق ادعاءاته في تقويض الميتافيزيقا الذي لم ينتج في النهاية سوى ميتافيزيقيا أفلاطونية مقلوبة، لأن «الميتافيزيقا لا تنمحي عندما يتم تخطيها، إنها تعود من جديد في شكل مغاير»، وهو ما جعل نيتشه نفسه آخر الأفلاطونيين بمحاولته الميتافيزيقية تلك كما زعم هيدغر.

أدرك الأخير استحالة القضاء على الميتافيزيقا، لأن كل نقد للميتافيزيقا محكوم بميتافيزيقا، ومأسور بالبقاء ضمن الفضاء الميتافيزيقي، وهذا حال نيتشه الذي « قلب الأفلاطونية بقي فكره مع ذلك أسيراً لتمثلها وأفكارها ووريثاً شرعياً من ورثة الميتافيزيقا»، فلذلك يبشر هيدغر بتجاوز الميتافيزيقا نحو الأنطولوجيا بدلاً من تقويضها، لأن التقويض الجينالوجي جعل من نيتشه «آخر ميتافيزيقي حسم أمر اكتمال الميتافيزيقا الغربية وهيأ الظروف لنهايتها، مارس فعل الإنهاء، لأنه آخر من سمح للميتافيزيقا من كشف ماهيتها واستنفاذ روح بدئها الأول».

ولما كان هيدغر يتفق مع نيتشه في أن التاريخ الغربي من بعد سقراط وأفلاطون هو تاريخ ميتافيزيقي، يفسره هيدغر على أنه نسيان الوجود واحتجابه، ولكي يتحقق تذكر الوجود أو انكشافه، لا بد من تجاوز الميتافيزيقا نحو الأنطولوجيا، هذا الانكشاف للوجود الذي كان حاله مع الفلاسفة السابقين على سقراط وأفلاطون، فإن هؤلاء الفلاسفة – أي السابقين – قد مثلوا التفلسف الأصيل، حينما طرحوا سؤال الفلسفة الرئيس ألا وهو الوجود.

رغم اختلاف التجاوز الهيدغري عن التقويض النيتشوي، بقي هيدغر أسيراً لميتافيزيقا نيتشه، تجلى هذا أولاً: في شكل تلك العودة إلى البداية اليونانية أي الفلاسفة السابقين على سقراط وأفلاطون، رغم اختلاف مضمونها تراجديدياً أو أنطولوجياً، وثانياً: اتفاقهما على أن الفن هو وحده المناط به استرجاع سؤال التراجيديا، أو سؤال الأنطولوجيا، سواء عبر الموسيقى عند نيتشه أو عبر الشعر عند هيدغر.

الخاتمة:

لم يُدشّن نيتشه بمفاهيمه النقدية عصراً فلسفياً فحسب، وإنما أبدع طريقة جديدة سماتها الأساسية التفكيك والتهديم ثم إعادة البناء بتأويل خاص وذلك في التعامل مع التراث اليوناني خاصة والغربي العقلاني عامة أثرت هذه الطريقة في كل الفلاسفة اللاحقين عليه، فكان هيدغر من أهم المعجبين بها، إذ شكل الموقف من الميتافيزيقا ميداناً سجالياً فلسفياً بين نيتشه وهيدغر، نال الأول من خلاله حضوراً أوسع وتأثيراً أعمق في الفكر الفلسفي المعاصر.

أدراك هيدغر أهمية القراءة النيتشوية في تناول المفصل الميتافيزيقي الرئيس في التكوين الجوهري للفكر الغربي. لكن الخيار الميتافيزيقي للعقل اليوناني لم يكن خياراً خاطئاً حدث معه الانزلاق نحو العقلانية كما ادعى نيتشه، بقدر ما كان ضرورة لبداية الفكر الغربي في التحول من الوجود إلى الموجود مع أفلاطون، ليصبح بذلك تاريخ الفلسفة هو تاريخ نسيان الوجود وتحجبه. ولذلك يراهن هيدغر على الاستعادة الأنطولوجية لتاريخ الفكر الغربي، لتحقيق انكشاف الوجود ولا تحجبه من خلال مساءلة اللامفكر فيه أو المنسي ميتافيزيقياً في تاريخ الفكر الغربي، احتاج فيها هيدغر إلى المبالغة في تضخيم فشل نيتشه في تحطيم الميتافيزيقا كي يعطي لنفسه مسوغاً جديداً لنقد العقل الميتافيزيقي كتاريخ نسيان للوجود، لأن نيتشه بتهديمه للميتافيزيقا الأفلاطونية كلحظة أساسية في تكوين تاريخ العقل الغربي لم ينتج سوى ميتافيزيقا مقلوبة، تُعطى فيها الأولوية للمحسوس على المعقول الأفلاطوني. فهيدغر لا يعيد الميتافيزيقا النيتشوية الجديدة إلى سوء فهم أصيل في راديكالية فكر نيتشه،

بقدر ما هي لحظة فضّت بها الميتافيزيقا الغربية إمكاناتها الأخيرة، كان من خلالها نيتشه آخر الفلاسفة الميتافيزيقيين.

ولذلك لا يدعو هيدغر إلى القضاء على جذور الميتافيزيقا واقتلاعها، كما كان حالها مع نيتشه، بل يدعو إلى تجاوز الميتافيزيقا، التي استنفدت كل إمكاناتها وأدت بدورها آخر مهماتها مع نيتشه. هذا التجاوز للميتافيزيقا لدى هيدغر لن يتحقق إلا بالفن وحده، فهو المنوط به تحقيق انكشاف الوجود بعد تحجبه ميتافيزيقاً، وهو أيضاً – أي الفن –يؤسس أنطولوجيا جديدة يعيد فيها السؤال إلى الوجود بدلاً من الموجود، ليس كما طرحه بارمنيدس وهراقليطس، ولكنّها أنطولوجيا تحقق كينونة الوجود الإنساني من خلال مفهوم الدازين بوصفه الوجود المتعين للكائن الإنساني.

أخيراً، تحيلنا خاتمة هذا البحث إلى سؤال يستدعي التأمل والمقاربة: هل استطاع هيدغر فعلاً أن يتجاوز الميتافيزيقا بعدما اتهم نيتشه بالفشل في تحطيمها أم أنه أنتج ميتافيزيقا جديدة كان فيها هيدغر أسير الميتافيزيقا النيتشوية مثلما وقع نيتشه أسيراً للميتافيزيقا الأفلاطونية في صيغة معكوسة؟ وهل من الضروري أن تنتهي كل محاولة للقضاء على الميتافيزيقا أو تجاوزها أو تفكيكها بميتافيزيقا أخرى؟ وهل الميتافيزيقا قدر محتوم على الفكر الغربي والإنساني لا يمكن التخلص منه؟

قائمة المراجع

1- نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، ط3، 2005.

2- نيتشه، مولد التراجيديا، ترجمة شاهر حسن عبيد، دار الحوار: اللاذقية، 2008.

3- نيتشه، أفول الأصنام، ترجمة حسان بورقيبة ومحمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1996.

4- نيتشه، مقدمة لقراءة المحاورات الأفلاطونية، ترجمة محمد جودة وأحمد جودة، دار البيروني، صفاقس، دون تاريخ.

5- نيتشه، إرادة القوة – محاولة لقلب كل القيم، ترجمة وتقديم محمد الناجي، أفريقيا الشرق: الدار البيضاء، 2011.

6- نيتشه، هذا الإنسان، ترجمة مجتهد عبد المنعم مجاهد، دار التنوير: بيروت، 2005.

7- نيتشه، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن القبيسي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: بيروت، ط2، 1983.

8- نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم: بيروت، بدون تاريخ.

9- نيتشه، ماوراء الخير والشر (مختارات)، ترجمة محمد عضمية.

10-هيدغر، ما الفلسفة – ما الميتافيزيقا، ترجمة فؤاد كامل ومحمود رجب، دار الثقافة: القاهرة، ط2،1997.

11-هيدغر، كتابات أساسية، ترجمة إسماعيل مصدق، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، 2003.

12-هيدغر، نداء الحقيقة، ترجمة عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة: القاهرة، 1997.

13-جيل دولوز، نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: بيروت، ط3، 1998.

14-علي حبيب الفريوي، مارتن هيدغر- نقد العقل الميتافيزيقي (قراءة أنطولوجية للتراث الغربي)، دار الفارابي: بيروت، 2008.

15-أويغن فنك، فلسفة نيتشه، ترجمة إلياس بديوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي: دمشق،1974.

16-عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر – مجاوزة الميتافيزيقا، دار توبقال: الدار البيضاء، 1991.
17-جيل دولوز – فليكس غتاري، ما هي الفلسفة، ترجمة مطاع الصفدي، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، 1997.
18-كنط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة مركز الإنماء القومي: بيروت.
19-بداية الفلسفة ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، دار الكتاب الجديد: بيروت، 2002.
20- جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، ترجمة جهاد كاظم، دار الجنوب: تونس.
21-عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه ومهمة الفلسفة – قلب التراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة، منشورات الاختلاف: الجزائر، 2010.
22-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني: بيروت، ج2، 1982.